التّعدّد اللّغويّ وسؤال الهويّة–قراءة في المفهوم والدّلالات–

Multilingualism and the question of identity - A reading of the concept and connotations -

د. سمير أبيـش♥

تاريخ الاستلام: 20–05–2022 تاريخ القبـول: 23–04–2023

ملخّص: تهدف هذه الدّراسة إلى تبيين دور اللّغة في تحقيق الأمن الهوياتي والكشف عن مدلولات التّعدّد والتّنوّع الذي يمكن أن تتّخذه هذه اللّغة ومستويات هذا التّعدّد، وعن العلاقة التي قد تنشأ بين التّعدّد اللغوي داخل المجتمع وسؤال الهويّة الذي بات مطروحًا بقوة خلال السّنوات الأخيرة جرّاء التّحدّيات الكبيرة التي باتت تفرضها العولمة الثّقافيّة.

ولقد خلصت الدّراسة إلى اعتبار اللّغة الأمّ هويّة للأمّة بلا منازع، وأنّ الدّعوة إلى التّمسك باللّغة الأمّ ليس دعوة لرفض التّعدّد أو أنّ التّعدّد سلبي في كل الأحوال ولا خير فيه ويجب استئصاله وإنّما التّعامل معه بمنهج نفعي يقلل المفاسد ويدرأها ويكثر المنافع ويجلبها، وهو المنهج الذي حاولت الدّراسة الوقوف عنده وتبيين شروطه.

كلمات مفتاحيّة: اللّغة؛ الأمن والانسجام الجمعي؛ الشّخصيّة الوطنيّة؛ التّعدّد والتّنوّع في اللّغة.

Abstract: This study aims to clarify the role of language in achieving identity security, and to reveal the implications of

♥جامعة محمّد الصّديق بن يحي جيجل، الجزائر، البريد الإلكتروني:Samir.oubbiche@univ–jijel.dz (المؤلّف المرسل).

pluralism and diversity that this language can take and the levels of this pluralism, and the relationship that may arise between linguistic pluralism within society and the question of identity, which has become strongly raised in recent years due to the great challenges that It is imposed by cultural globalization.
The study concluded that the mother language is considered an identity for the nation without controversy, and that the call to adhere to the mother language is not a call to reject polygamy, or that polygamy is negative in all cases and there is no good in it and must be eradicated, but rather dealing with it with a utilitarian approach that reduces and prevents evils, and increases and brings benefits, and it is the approach that The study tried to stand with him and clarify his conditions.

Keywords: the language; security and collective harmony; national character; Diversity and diversity in language.

1. مقدّمة: تمثّل الهويّة المظاهر الفكريّة والثّقافيّة والرّوحيّة التي من خلالها يتميّز مجتمع ما عن غيره من المجتمعات، والملامح التي تعكس طريقة حياته وعاداته ومعتقداته، والقيم والمثل والمفاهيم الحضاريّة التي عبرها تتبلور شخصيته ويتجسّد انتماؤه، وتتأسّس ذاته التي تستمدّ خصوصيتها من مقابلتها واختلافها عنه.[1]

والكلّ متّفق على أنّ اللّغة هي الخاصيّة الأولى لهويّة الشّعوب والحضارات بل إنّ اللّغة هي المحدّد والأساس لشخصيّة الإنسان وثقافته، وأنّ العربيّ عربيّ لأنّه يتكلّم العربيّة والإسباني إسباني لأنّه يتكلّم الإسبانيّة ثم إنّ الإنسان لم يقطع هذه الأشواط في تاريخه إلاّ مستعينا بملكته اللغويّة التي مكنته من وضع العلوم وتسجيل ملاحظاته عبر العصور لتستفيد منه الأجيال البشريّة المتعاقبة.[2]

وكما أنّ الكلّ متّفق على أنّ اللّغة هي الخاصيّة الأولى لهويّة الشّعوب فكذلك كلّهم متّفقون على أنّ التّعدّد والتّنوّع اللّغوي ظاهرة اجتماعيّة موجودة داخل جميع المجتمعات البشريّة قديمها وحديثها، وأنّه لم تسجّل لحظة من تاريخ

البشريّة دون وجود هذا التّعدّد والتّنوّع في اللغات المستعملة، ومردّ ذلك كلّه فطرة فطر عليها الخالق عباده قال تعالى﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (22) سورة الرّوم.

غير أنّ الأشكال الحديثة للتنظيمات الاجتماعيّة التي عرفتها البشريّة في شكل دول قوميّة خلق نقاشات وإشكاليات كبيرة حول عوامل بناء هذه الدّول وما تقتضيه من وجود لغات والسّن جامعة يتم فيها صهر أفراد المجتمع ومنطقة شعورهم بشكل منسجم، وبين اللغات والالسّن المتعدّدة التي يتكلّم بها أفراد هذه الدّول ويعبرون بها عن أهوائهم.

ففي الوقت الذي عملت فيه دول ومجتمعات إلى تبني لغة موحدة جامعة وإزاحة باقي اللغات الأخرى التي كانت تشاركها الفضاء الاجتماعي مثل ما وقع في ألمانيا وفرنسا لصالح الفرنسيّة الحاليّة التي كانت فقط لغة ضاحيّة من ضواحي العاصمة باريس وبريطانيا لصالح الإنكليزيّة على حساب لغات القوميات الأخرى، عمدت سويسرا إلى تبني نموذج قائم على التّعايش التّشاركي بين ثلاث لغات، في حين نجد أنّ دولاً أخرى ما زالتّ لم تحسم بعد مسألة التّنوّع والتّعدّد اللّغوي.

وتهدف هذه الدّراسة إلى تبيين دور اللّغة في تحقيق الأمن الهوياتي والكشف عن مدلولات التّعدّد والتّنوع الذي يمكن أن تتّخذه هذه اللّغة، وعن العلاقة التي قد تنشأ بين التّعدّد اللغوي داخل المجتمع وسؤال الهويّة الذي بات مطروحا بقوّة خلال السّنوات الأخيرة جرّاء التّحديات الكبيرة التي باتت تفرضها العولمة الثّقافيّة.

2. في مفهوم اللّغة وخصائصها: يعرف قاموس علم الاجتماع لعاطف غيث اللّغة على أنّها جزء من التّراث الثّقافي ومعبرة عنه في نفس الوقت وأنّها نتاج اجتماعي: تمثل التّجارب المتراكمة والرّاهنة والعواطف والمعاني التي يمكن

نقلها داخل ثقافة معينة بالإضافة إلى أهمّيتها في الإدراك الاجتماعي والتّفكير ومعرفة الذّات ومعرفة الآخرين وهي بذلك ضروريّة للوجود الاجتماعي[3].

كما يعرفها فاردينان دوسوسور بقوله: اللّغة نظام اجتماعي لا نظام فردي وأنّها سيّاق لوجودنا، وحسب دوسوسور أن نتكلّم لغة ما هو ليس فقط أن نعبّر عن أفكارنا الخاصّة والأصليّة، وإنّما هو أيضا تشغيل طيف واسع من المعاني التي تتجسّد في لغتنا وأنظمتنا الثّقافيّة[4].

ومن جملة خصائص اللّغة التي يمكن ذكرها والوقوف عليها من خلال ما سبق ذكره ما يلي:

–أنّ اللّغة عنصر من التّراث الثّقافي: ولذلك يرى كلود ليفي ستراوس أنّ اللّغة المستعملة في مجتمع ما تعبّر عن ثقافة السّكان العامّة وهي بمعني آخر قسم من الثّقافة، إذ أنّها تؤلّف عنصرًا من عناصرها، بل إنّه يعدّها شرطا من شروط الثّقافة وذلك لأنّ الفرد يكتسب ثقافة جماعته بواسطة اللّغة[5]؛

–أنّ اللّغة ظاهرة اجتماعيّة أو نتاج اجتماعي وهي الصّفة أو الخاصيّة التي يكاد يجمع عليها جميع المهتمين بدراسة اللّغة، فكلود ليفي ستراوس مثلا يؤكّد علي أنّ اللّغة ظاهرة اجتماعيّة بل أوضح الظّاهرات الاجتماعيّة[6]، والدّكتور علي عبد الواحد وافي يعتبرها نتاج العقل الجمعي[7]، ونبيل علي يقول عنها: أنّ اللّغة بلا منازع أبرز السّمات الثّقافيّة وما من حضارة إنسانيّة إلاّ وصاحبتها نهضة لغويّة وما من صراع بشري إلاّ ويبطن في جوفه صراعا لغويا حتى قيل أنّه يمكن صياغة تاريخ البشريّة على أساس من صراعاتها اللّغويّة[8]؛

–أنّ اللّغة ضروريّة للوجود الاجتماعي، بل تعتبر شرطا مسبقا وضروريا لقيام المجتمعات والثّقافات والذّات والعقل[9].

إنّ هذه الخصائص التي تتميّز بها اللّغة تبين بشكل واضح كيف أنّ اللّغة تعبير صريح عن الهويّة وأنّ الأمن الهوياتي لا يمكن الحديث عنه خارج دائرة

اللّغة لأنّها هي المسؤولة عن الوجود المعنوي والثّقافي لأي مجتمع والحارسة والضّامنة له ولاستمراره بفعل ما تمارسه من وظائف.

3. الهويّة وعناصر البناء: جاء في قاموس علم الاجتماع لعاطف غيث أنّ الهويّة تشير إلى (الانتماء إلى أمّة معينة والتّوحّد معها وينطوي مصطلح القوميّة طبقا لهذا المعنى وفي معظم الأحوال الاشتراك في ثقافة واحدة بما في ذلك اللّغة المشتركة، ويضيف أيضا أنّها تشير إلى الانتماء إلى جماعة تشترك في سمات ثقافيّة واحدة تنطوي في الغالب على لغة مشتركة وتاريخ مشترك)[10] وهو نفس المفهوم الذي يعطيه لها قاموس الشّامل الخاص بمصطلحات العلوم الاجتماعيّة[11]، ولم يبتعد "أندرسون" أحد أكثر علماء الاجتماع المهتمّين بالدّراسات السّوسيولوجيّة حول القوميّة والهويّة عن هذا المعني بقوله أنّها(تتعلّق أساسا- بأمور ثقافيّة- اللّغة والدّين والرّموز)[12].

وفي معجم مصطلحات الثّقافة والمجتمع أنّ مفهوم الهويّة ينطلق من خلال تصور الجماعة بوصفها كيانا منسجما وأمّة ذات جوهر مشترك[13]، وأنّ سؤال الهويّة ينحصر ببُعد الانتماء، الانتماء إلى الثّقافة المشتركة التي تمثل الشّرط الأساسي للتعبير عن الذّات[14]، وهو نفس المفهوم الذي صاغه دنيس كوتش لمفهوم الهويّة بتعبير قد يختلف في الصّيّاغة لا أكثر، حيث يرى كوتش أنّ الهويّة بناء يبني في علاقة تقابل فيها مجموعة مجموعة أخرى تكون في تماس معها أي أنّ الهويّة نمط تصنيف تستعمله المجموعات لتنظيم مبادلاتها، وأنّها حسب فريدريك بارك(رصد السّمات الثّقافيّة التي يستعملها أفراد المجموعة ليثبتوا تمايزا ثقافيا ويحافظوا عليه)[15] وبيّن المفكّر الفرنسي جاك أتالي أنّ هذه السّمات الثّقافيّة لهويّة الأمّة هي لغتها وثقافتها وطريقة تفكيرها وانخراطها في العالم[16] ولم يخرج الدّكتور حليم بركات في تعريف طويل يحمل توصيفات كثيرة على هذا المعني المقدّم لمفهوم الهويّة، بقوله إنّ الهويّة وعي للذّات والمصير

التّاريخي الواحد، من موقع الحيز المادي والرّوحي الذي نشغله في البنيّة الاجتماعيّة، وبفعل السّمات والمصالح المشتركة التي تحدّد توجّهات النّاس وأهدافهم لأنفسهم ولغيرهم وتدفعهم للعمل معًا في تثبيت وجودهم والمحافظة على منجزاتهم وتحسين وضعهم وموقعهم في التّاريخ، الهويّة من حيث كونها أمرا موضوعيا وذاتيا معًا هي وعي الإنسان وإحساسه بانتمائه إلى مجتمع أو أمّة أو جماعة أو طبقة في إطار الانتماء الإنساني العام، إنّها معرفتنا بما وأين، ونحن ومن أين أتينا، وإلى أين نمضي، وبما نريد لأنفسنا والآخرين وبموقعنا في خريطة العلاقات والتّناقضات والصّراعات القائمة[17].

هذا وإنّ الدّكتور أحمد بن نعمان يرى أنّ مفهوم الهويّة من ناحيّة الدّلالة اللّغويّة هي كلمة مركّبة من ضمير الغائب "هو" مضاف إليه ياء النّسبيّة لتدل الكلمة على ماهيّة الشّخص أو الشّيء المعني كما هو في الواقع بخصائصه ومميّزاته التي يعرف بها[...] وأنّ الهويّة بهذا المعني هي اسم الكيان أو الوجود على حاله، أي وجود الشّخص أو الشّعب أو الأمّة كما هي بناء على مقوّمات ومواصفات وخصائص معيّنة تمكّن من معرفة صاحب الهويّة بعينه دون اشتباه مع أمثاله من الأشباه.

4. مدلولات التّعدّد اللّغوي وسؤال الهويّة: يشير مصطلح التّعدّد اللغوي إلى الوضعيّة اللسانيّة المتميّزة بتعايش لغات وطنيّة متباينة في بلد واحد، إمّا على سبيل التّساوي إذا كانت جميعها لغات عادلة كالألمانيّة والفرنسيّة والإيطاليّة في الجمهوريّة الفدراليّة السّويسريّة، أو على سبيل التّعالي كاللّغة العربيّة والأمازيغيّة زمن الدّويلات الإسلاميّة في الجزائر، أين كانت العربيّة الفصحى تمارس دورها داخل دواليب الحكم وفي مراكز إنتاج المعرفة في جامعات تلمسان وبجاية والأمازيغيّة بكل فروعها تمارس دورها العادي في حياة النّاس والتّعبير عن مشاغلهم وحوائجهم وذلك دون أدنى تضارب أو تنافض.

فالتّعدّد اللغوي هو توظيف لغات مختلفة في مجتمع واحد كما هو الحال في الفيدراليّة السّويسريّة حيث تستعمل اللغات الألمانيّة، والفرنسيّة، والإيطاليّة، على سبيل التّساوي، وكما هو الحال في الفيدراليّة الكنديّة حيث الفرنسيّة في مقاطعة "كوبيك" والإنكليزيّة في بقيّة المقاطعات، وكذلك الأمر بالنّسبة للفيدراليّة البلجيكيّة التي كانت بعد استقلالها عن فرنسا تفرض اللّغة الفرنسيّة كلغة رسميّة في البلد؛ ما أدى إلى حرمان أبناء اللّغة "الفلمنكيّة" من الوظائف الحكوميّة؛ بل وصعوبة تواصلهم مع الموظّفين الذين لا يعرفون التّحدث بالفرنسيّة؛ ما أدى ذلك إلى قيام ثورة الفلمنكيّين وبعد صراع طويل تحولت بلجيكا إلى مملكة فيدراليّة على أساس حدود إقليميّة محدّدة لغويا، ويأخذ مفهوم التّعدّد اللغوي داخل أي مجتمع عدّة مدلولات يتم من خلالها معالجة مسألة الهويّة، منها:

1-الازدواجيّة اللغويّة: تشير الازدواجيّة اللغويّة إلى وجود أكثر من مستويين للغة الواحدة، جنبًا إلى جنب في مجتمع من المجتمعات بحيث يستخدم كل مستوى من مستويات اللّغة في أغراض معينة ويكون أحد هذه المستويات اللغويّة عادة أعلى مركزا ويسمّى باللّغة المعياريّة أو الفصحى وتستعمل في المكاتب الرّسميّة والتّعليم والعبادة أمّا المستوى الآخر فهو عادة أقل رتبة ويستعمله الأفراد في حياتهم اليوميّة في معاملاتهم الاجتماعيّة وفي مواقف الحوار المختلفة مثل مواقف البيع والشّراء وغير ذلك وتسمّى باللّغة الدّارجة والعاميّة[18].

إنّ هذا الشّكل من أشكال التّعدّد اللغوي يرى فيه العديد من اللغويين أنّه أمر طبيعي ومعروف في التّاريخ الإنساني القديم والحديث، حيث نجد في الوطن الواحد عشرات اللغات أو اللهجات العاميّة التي تسير مع الفصحى جنبًا إلى جنب وأنّ وجوده أمر حتمي وضرورة اجتماعيّة، ولا يعدو أن يكون سوى شكلا من أشكال اللّغة الفصحى تمّ فيه التّخلّي عن بعض قوانينها أو الذّهاب إليه

نتيجة لتغيرات مسّت اللّغة الفصحى، وأنّ هذا الشّكل في جوهره لا يشكل تهديدًا أبدًا على الأمن الهوياتي للمجتمع القائم على سلطان اللّغة لأنّ المتكلّمين بهذه اللهجات حتما سيلجئون إلى اللّغة الفصحى الجامعة إذا تعذّر عليهم التّفاهم بلهجاتهم وهو ما نجده واضحًا في البيئة العربيّة مثلا أين تزول جميع الحواجز التي تضعها اللهجات الخاصّة بكل قطر عند التّقاء أفراد البلدان العربيّة وحديثهم باللسان العربي الفصيح.

وهو ما جعل البعض يقول أنّ اللّغة العربيّة في تنوّعها ومستوياتها الفصيحة والوسيطة والدّارجة هي كل يمثّل الهويّة اللغويّة للمواطن(العربي)[19].

2– الثّنائيّة اللغويّة: وضعيّة لغويّة يتناوب فهيا متكلمون من مجموعة لغويّة ما على نظامين لغويين مختلفين، أي وجود لغتين مختلفتين عند فرد ما أو جماعة ما في آن واحد: كما الحال مثلا في كندا بالنّسبة للفرنسيّة والإنكليزيّة وغيرها من الأمثلة الكثيرة، فهنا الحديث ليس عن لغة وفروع لها وإنّما الحديث عن لغتين متمايزتين تمامًا، وهو الشّكل الذي يمثّل تهديدًا صريحًا على الأمن الهوياتي كما يرى الكثير من الباحثين، وذلك لأنّه يخلق مجتمعين بشعورين مختلفين لأنّ اللّغة هي الشّعور والأحاسيس وكل ذلك كما عبر عنها الفلاسفة الألمان، (كما يؤدي ذلك إلى الانفصام في الشّخصيّة لدى أبناء البلد الواحد ويعرضهم إلى المسخ والانسلاخ، ويلحق ذلك أضرارا بالغة بالهويّة الوطنيّة ويؤدّي إلى ازدواجيّة ثقافيّة، كما يؤدّي إلى ظهور طبقتين لغويتين واجتماعيتين متعارضتين من حيث المصالح والاهتمامات والتّوجّهات الفكريّة والثّقافيّة)[20] وممّا يدل على خطورة هذا الوضع اللغوي على الأمن الهوياتي هو الحالة التي توجد عليها العديد من الدّول التي تتميّز بوجود نظامين لغويّين، حيث نجد أنّ الدّول التي لم تتمكّن من حسم المسألة اللغويّة لصالح لغة واحدة، تعيش اليوم على صفيح ساخن وعلى وقع توتّرات ونداءات متكرّرة ومتواصلة للانقسام

والانفصال عن مراكز هذه الدّول وذلك بتوظيف العامل اللغوي، وما تشهده إسپانيا في إقليمي الباسك وكاتلونيا وما تشهده بلجيكا من طرف الفلامند نسبة إلى اللّغة الفلامنديّة أوضح مثال على ذلك، وينقل لنا الدّكتور بن نعمان بعضًا من آثار التّعدّد اللغوي في (شكله الثّنائي) على وحدة بلجيكا بقوله: والنّتيجة أنّ بلجيكا التي كانت بلدًا موحّدا(قبل دخول اللّغة الفرنسيّة) أصبحت اليوم بلدا مقسما إلى جزأين تفصلهما حدود لغويّة حقيقيّة، تطبع فيهما الجرائد وتبثّ منهما الإذاعات ومحطّات التّلفزة بلغتين مختلفتين، أنباء وأحداث مختلفة وأحيانا متناقضة وهو وضع قسم البلاد من منظور اقتصادي إلى منطقتين مختلفتين أيضًا).

وحتى بعض الدّول العربيّة التي حدثت فيها توتّرات وانقسامات أو محاولات للانقسام شكّلت اللّغة المحرّك الأساسي للحركات الانفصاليّة فيها ومثاله الأكراد في العراق وجنوب السّودان ولو كان الدّافع دينا مثلا فإنّهم جميعا مسلمون ولو كان عرقيًّا فالسّودان تقريبا من عرق واحد أو من سلالات متقاربة.

أمّا الدّول الذي استطاعت أن تحسم هذه الثّنائيّة اللغويّة لصالح لغة واحدة جامعة مركزيّة فقد استطاعت أن تضمن أمن هويّتها الذي كان سببا مباشرا في انسجام مجتمعها وتحقيقها للرقي والتّقدم، فالصّين: كانت ممزّقة بين عشرات اللغات، وكانت الإنكليزيّة هي التي تربط بين متعلّميها، إلى أن قرّر ماوتسي تونغ سنة 1949 اعتماد اللّغة الخانيّة كلغة قوميّة موحّدة لسائر الصّينيّن وبفضل هذا القرار صار مليار صيني منذ ذلك التّاريخ يتفاهّمون بلغة قوميّة واحدة. وصارت الصّين الآن القوة الاقتصاديّة الثّانيّة بالعالم، وأندنوسيا: يبلغ عدد سكانها 240 مليون نسمة هي أكبر بلد مسلم بالعالم، استعمرت من هولندا وسيطرت عليها اللّغة الهولنديّة مدّة ثلاثة قرون، وفي 1928 قررت الحركة الوطنيّة بقيادة الزّعيم اللغوي كما وصف جايا دانجرات اعتماد بهاسا أندنوسيا

أي اللّغة الأندنوسيّة المستمدة من المالويّة لتحل محل اللّغة الهولنديّة مع إلغاء هذه وإحلال محلّها اللّغة الإنكليزيّة كلغة أجنبيّة تخلّصًا من سائر الرّواسب التي تركتها في الذّات واللسان الاندونيسي، تتكون أندنوسيا من 17508 جزيرة ستة آلاف 6000 منها مأهولة تمتد على مليوني كيلو متر مربع بالمحيط؛ كانت توجد بها مئات اللغات لكن اللّغة الوطنيّة المالويّة استطاعت أن تكوّنَ من سكان هذه الجزر نسيجا اجتماعيا منسجما يتحدثون لغة واحدة، وأن تطبّق تنميّة اقتصاديّة واجتماعيّة ناجحة، وتؤلّف مع أقطار أخرى ما يسمّى بنمور آسيا التي تقدّمت بلغاتها، بمجرّد أن اعتمدت اللّغة، قرّرت الحركة الوطنيّة تحقيق الأمن الغذائي فحقّقته في سنوات قليلة ومرت للتصدير، ويبلغ ناتجها المحلي 834 مليار دولار دخل الفرد بها 5100 دولار فهي الكبرى اقتصاديا بالعالم الإسلامي، وتصنف الخامسة عشرة عالميا، فبعدما كانت تصدر النّفط فصارت تستورده دون أن يتأثّر مستوى نموها، وبها صناعة متطوّرة ، كل ذلك يتم بلغتها الوطنيّة، ما جعل الأمريكي ديتوس سميث (Datus C. Smith) يقول "ثلاثة عوامل تحكّمت في الوطنيّة الأندنوسيّة: اللّغة والدّين وحب الاستقلال[21].

5. خاتمة (استخلاصات عامّة للدراسة): ينبغي أن نشير بتحديد دقيق لموضوع لا يحتمل غير التّحديد الدّقيق، إن مسألة التّعدّد والتّنوع اللغوي وعلاقتها بالأمن الهوياتي المبني على تحصين الفكر والثّقافة لا يمكنه أن يتحقّق إلاّ من خلال:

1–اعتبار اللّغة الأمّ هي هويّة المرء وهويّة الأمّة التي ينتسب إليها وهي محور المنظومة الثّقافيّة المتجذّرة والأصيلة بلا منازع وأنّه إذا ما فقد أي شعب لغته الأمّ فإنّ ذلك حتما سوف يؤدي لا محالة إلى طمس ذاتيته الثّقافيّة وفقدان

هويته المميزة لأنّ اللّغة جنسيّة من لا جنسيّة له وأنّها وطن ومن فقد وطنه فقد لغته[22].

وعلينا أن نتذكر دائماً أنّ اللّغة القوميّة هي رمز حي للهويّة، وأنّ حدود الوطن تنتهي بانتهاء حدود اللّغة القوميّة، وأنّ التّفريط في اللّغة القوميّة والقبول بسقوطها تحت هيمنة لغات أخرى هو تفريط في الوطن وتهاون في سيادته[23].

2-إنّ الدّعوة إلى التّمسك باللّغة الأمّ ليس دعوة لرفض التّعدّد أو أنّ التّعدّد سلبي في كل الأحوال ولا خير فيه ويجب استئصاله، فنحن نعيش زمن التّعدّد والتّثاقف اللسانيين، بسبب ما تتيحه الوسائل التّكنولوجيّة المدفوعة بتيار العولمة، فالنّاس في مواجهة اللغات في ملبسهم ومأكلهم ومشربهم بل في كل شؤونهم، فنحن نعيش في عالم متعدّد ومتقارب اللغات فما علينا إلاّ تقبل الواقع والتّعامل معه بمنهج نفعي يقلل المفاسد ويدرأها، ويكثر المنافع ويجلبها، إنّ التّعدّد اللساني الذي ندفعه ونرفضه هو ذلك الوضع الذي يحدث القطيعة بين اللسان الرّسمي واللسان الذي يتكلّم به مجموع النّاس، أو ذلك التّعدّد الذي يجعل المجتمع أقليات عرقيّة وطوائف دينيّة تتصارع فيما بينها،[24] وهو الواقع الذي أسماه لويس جان كالفي بحرب اللغات بمعنى الصّراع الذي يفضي إلى سيطرة لغات وإزاحة أخرى حينما يغيب التّدبير اللغوي ويكون النّاتج تهديدا للوحدة والثّقافة الوطنيّة وكذا المصير المشترك خصوصا وأن ارتباط اللّغة بالعرق أو بالسّمة الوطنيّة ومن ثم الهويّة في أشكالها المتعدّدة يجعلها تتعرّض لتهديدات قد تصل إلى مرحلة الانقراض الحاصل من قلّة الاستعمال سواء عبر التّداول اليومي أو باعتبارها لغة العلم والإبداع بما يسمح لها بأن تكون حافظة للتّراث وناقلة للمعارف والأفكار.

ويشكل النّموذج الهندي أحد هذه النّماذج الأكثر تعبيرا عن صراع اللغات الذي يفضى إلى تمزق في الهويّة الوطنيّة ويؤجّج الحروب والخلافات ويضعف

النّسيج الجمعي، حيث يعترف الدّستور الهندي بثلاث عشرة لغة رسميّة إلى جانب اللّغة الهنديّة، التي فازت بمنصب "اللّغة القوميّة (Language National)، هذا إلى جانب اللّغة الإنكليزيّة التي تستخدم في الهند لغة وظيفيّة في المؤسّسات التّعليميّة ويضاف إلى ذلك ألف وستمائة واثنتان وخمسون (Mother Languages) من بينها نحو سبعمائة لغة تنتمي إلى أربع أسر لغويّة مختلفة، وتكتب بعشرة أمناط كتابيّة، ما جعل من الهند مسرحاً للصراعات والنّزاعات اللغويّة[25].

3–إنّ تجاوز هذا الصّراع الذي قد يحدث بين اللغات وتعدّى ذلك إلى الاستفادة منه علميا واقتصاديا ودون المساس بالأمن الهوياتي وضرب وإحراج البنيّة الثّقافيّة للمجتمع يمرّ حسب (المختصين بالتّدبير اللغوي (Language Planning)، بالدّعوة والعمل إلى تعلّم اللغات الوطنيّة أوّلا كحالة "تمترس هوياتي" تضمن للفرد خصوصيته الثّقافيّة واستقلاله الفكري، ليتم بعد ذلك في مقام ثان الانطلاق في تجربة تعلم اللغات بوصفها حقًّا مشروعا ومقصدا ثقافيا يحقق به الفرد ذاته ليتمكن من الاطلاع على الثّقافات المختلفة. أمّا على الصّعيد الاجتماعي فإنّ الأمر يحتاج إلى تؤدة حينما تتكون الدّولة من أطياف لغويّة متعدّدة، فيكون الحق لكل جماعة لغويّة (Linguistic Group) بوصفها مجموعة لسانيّة تجمعها اللّغة بوصفها الملمح الهوياتي الأبرز في أن توظف لغتها وأنّ تطور مجالات استعمالها، والدّليل على ذلك التّدبري اللغوي الموجود في سويسرا، بلجيكا، كندا وهولندا والذي مكن إلى حد كبير من إيجاد نقاط تقاطع تمكن الأفراد من التّفاهم والتّواصل.[26]

4– بالنّسبة لعلاقة اللّغة الفصحى المعبرة عن الضّمير الجامعي والحافظة والنّاقلة للتّراث الثّقافي الذي يمثل الحفاظ عليه حفاظا على الهويّة، واللهجات المحليّة أو العاميّة، وهنا ينبغي أن نفتح قوسا لنقول إنّ المقصود هنا باللهجات

المحلّيّة أو العاميّة هي اللهجات التي تكون عبارة عن فصحى تمّ فيها التّخلّي عن بعض القواعد النّحويّة والصّرفيّة، لا العاميّة المتكونة من مفردات لغة أخرى مثل الذي يحدث داخل العديد من اللهجات العاميّة الجزائريّة وخاصّة لغة سكان العاصمة التي هي في الحقيقة فرنسيّة تم التّعبير عنها بلسان عربي، لأنّ ألفاظا مثل (ترا التي تساوي القطار وطاكسي التي تساوي السّيارة ومختلف الألفاظ والكلمات الموجودة داخل الاستعمال المنزلي كالكوزينة وليشامبر والهول وتليفزيون والبورطابل وغيرها هي في الأصل كلمات فرنسيّة وليست عاميّة عربيّة)، فإنّ العلاقة بين العاميّة والفصحى المشتقة منها ينبغي أن لا تتجاوز حد الاستعمال الاجتماعي البسيط أو الوصل بها إلى حد الهيمنة على الفصحى حتى تصيح وكأنّها هي الأصل والفصحى فرع عنها، ولا أدل على ذلك من قصّة الأمّ التي وجدت ابنتها تقلد ممثّلة في فيلم مكسيكي مترجم إلى الفصحى لتقول لأبيها تعالَ وانظر ابنتك ماذا تفعل إنّها تقلّد المكسيكيين.

فإنّ تحقّق هذا الأمر لا قدر الله وتم التّخلي عن الفصحى إلى العاميّة فإنّ هذا سيكون ضربا صريحا للهويّة، إذ أنّ أبناء هذا البلد أو المجتمع سيحتاجون في تعاملاتهم الرّسميّة كالتّعليم والإدارة مثلا إلى لغة تعبّر لهم عمّا يريدون فإنّهم حتما سيضطرّون إلى الاستنجاد باللّغة المنظّمة والقادرة على ذلك ولأنّ لغتهم الفصحى قد تم التّخلّي عنها أو تدريجها فلن يكون أمامهم سوى الاستنجاد باللغات الأخرى، وهو المشروع الذي كانت تعمل عليه الإدارة الفرنسيّة مثلا في فرنستها للمجتمع الجزائري من خلال الدّعوة إلى تدريج الفصحى حتى إذا لم يجد الشّعب الجزائري بعد ذلك لغة في تعامله الرّسمي سيلجأ إلى الفرنسيّة التي كانت حاضرة لذلك.

5-إنّ الحل الأمثل للوضع اللغوي المتعدّد الذي يضمن أمن هويّة المجتمع ودون أن يحرمه من مميّزات التّنوع اللّغوي خاصّة في هذا العصر الذي يحتاج

إلى أكثر من تواصل مع الغير والاطلاع بما عنده هو النّظر إلى اللغتين المختلفتين كبديلين لبعضهما البعض، أي النّظر إلى انتشار إحداهما على أنّه مؤشّر على انقراض الأخرى بالضّرورة، فالمعطيات الدّوليّة والاجتماعيّة والثّقافيّة وحتى الدّينيّة تدعو اليوم بإلحاح إلى التّعدّد اللّغوي، شريطة أن لا "تعامل اللّغة الثّانيّة (الفرنسيّة في الجزائر مثلا) كوسيلة استخلاف هوياتي، بل تعامل كوسيلة دعم لّغوي، كإضافة وليس كبديل، حتى وإن بدا هذا المطلب طوباويا بعض الشّيء على مستوى النّخب بالنّظر للرهانات التي تختفي وراء مسألة اللّغويّة.[27]

8. هوامش:

[1]–ميمون مجاهد: العلاقة بين اللسان الرّسمي والهويّة في المجتمعات المتعدّدة الالسّن ضمن كتاب التّعدّد اللساني واللّغة الجامعة، ج2، (الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربيّة، 2014)، ص406.

[2]–نوار عبيدي: من اللاعوي إلى الوعي اللغوي دراسة في سبل التّخلص من الآثار السّلبيّة للازدواجيّة اللغويّة في اللسان العامي الجزائري، ج2، (الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربيّة، 2014)، ص158.

[3]–محمّد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع، (القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب 1979)، ص266.

[4]–ستيوارت هول، حول الهويّة الثّقافيّة، ترجمة: بول طير، مجلة إضافات، المجلة العربيّة لعلم الاجتماع، العدد الثّاني، ربيع 2008، الجمعيّة العربيّة لعلم الاجتماع، ص 150.

[5]–كلود ليفي ستراوس، الأنثروبولوجيا البنيويّة، ترجمة: مصطفي صالح، (دمشق: وزارة الثّقافة والإرشاد القومي، 1977)، ص90.

[6]–نفس المرجع، ص 76.

[7]–علي عبد الواحد وافي، اللّغة والمجتمع، (القاهرة: دار النّهضة، 1971)، ص 2.

[8]–نبيل علي، الثّقافة العربيّة وعصر المعلومات، (الكويت: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2001)، ص232.

[9]–إبراهيم عثمان، مقدّمة في علم الاجتماع، (عمان: دار الشّروق، 1999)، ص165.

[10]–محمّد عاطف غيث، مرجع سابق، ص 300.

[11]–مصلح الصّالح، الشّامل–قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعيّة، (الرّياض: دار عالم الكتب، 1999)، ص 356.

[12]–ديفيد ماك كرون، علم اجتماع القوميّة، ترجمة: سامي خشبة، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2007)، ص27.

[13]–طوني بينيت ولورانس غروسبيرغ وميغان موريس، معجم مصطلحات الثّقافة والمجتمع ترجمة: سعيد الغانمي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2010)، ص201.

[14]–نفس المرجع، ص702.

[15]–دنيس كوتش، مفهوم الثّقافة في العلوم الاجتماعيّة، ترجمة: منير السّعيداني، (بيروت: المنظمة العربيّة للترجمة، 2007)، ص153.

[16]–الشّروق اليومي الجزائريّة، العدد 3549، الخميس 26 جانفي2012م/2 ربيع الأوّل 1433هـ.

[17]–حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2000)، ص68.

[18]–جيلاني بن يشو: التّعدّد اللغوي في الجزار: مظاهره وانعكاساته، ضمن كتاب التّعدّد اللساني واللّغة الجامعة، ج2، (الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربيّة، 2014) ص54.

[19]–يمينة مصطفاي: اللّغة الفصحى وقريباتها: تعايش سلمي واحترام متبادل، ضمن كتاب التّعدّد اللساني واللّغة الجامعة، منشورات ج2، (الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربيّة، 2014)، ص299.

[20]–نصر الدّين بن زروق: الازدواجيّة اللغويّة وواقع اللّغة العربيّة الفصحى في الجزائر ضمن كتاب التّعدّد اللساني واللّغة الجامعة، ج2، (الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربيّة، 2014)، ص392.

[21]–عثمان سعدي: الوحدة الوطنيّة أساسها الوحدة اللغويّة.. لا وحدة وطنيّة بلا وحدة لغويّة هل دخلت الجزائر الحرب اللغويّة؟، مقال على جريدة رأي اليوم، عدد 2018/01/11

[22]–محمّد الأمين خلادي: ظاهرة التّعدّد اللغوي وتارخها في الجزائر، ضمن كتاب التّعدّد اللساني واللّغة الجامعة، ج2، (الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربيّة، 2014) ص 106.

[23]–عبد الجواد توفيق محمود: الواقع اللغوي في العالم العربي في ضوء هيمنة اللهجات المحليّة واللّغة الإنكليزيّة، مجلّة رؤى إستراتيجيّة، عدد سبتمبر 2014، ص123.

[24]–عمر بوقمرة: التّعدّد اللغوي قراءة في المصطلح والمفهوم والمظاهر، حوليّة الصّوتيات العدد 19، مخبر اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة البليدة 02، ص102.

[25]–عبد الجواد توفيق محمود: مرجع سابق، ص124.

[26]–بشير خليفي: التّعدّد اللغوي وسؤال الهويّة، في ظل صراع القيم والمرجعيات، الأكاديميّة للدراسات الاجتماعيّة والإنسانيّة، العدد 18، جوان 2017، ص73.

[27]–غماري الطّيب: خمسون سنة من التّعدّد اللغوي في المدرسة الجزائريّة صراع هويات ينتهي إلى الأميّة، مجلة الموافقات للبحوث للدراسات في المجتمع والتّاريخ، العدد 07 ديسمبر 2012، جامعة معسكر، ص77.